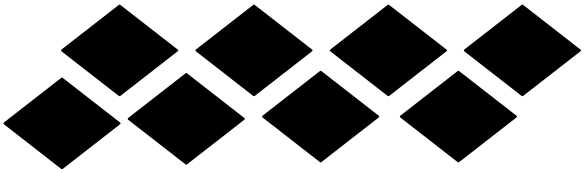

مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

الشعر الجاهلى بين القبول أو الرفض عند النقاد القدامى والمحدثين

الباحث. عبد الله أبو العلا مرعى

(الجاهلية والشعر الجاهلى)
أَوَّلِيَّةُ وَعُمْرُ الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ

– أولية الشعر الجاهلي :

***أَوَّلُ مَنْ طَرَقَ هَذِهِ المَسْأَلَةِ ، وَمَهَّدَ الطَّرِيقَ لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الدَّارِسِينَ وَالنُّقَّادِ وَالأُدَبَاءِ ،وَيُعْتَبَرُ لَهُ فَضْلُ السَّبقِ في تَنَاوُلِ تِلْكَ الجُزْئِيَّةِ مِنْ جُزْئِيَّاتِ البَحْثِ وَالتي مَازَالَتْ وَسَتَظَلُّ تَشْغَلُ ضَمِيرَ الباحِثِينَ لِتَوْثِيقِ تُرَاثِنَا العَرَبِيِّ ،وَالتَّنْقِيبِ عَنْ مَكْنُونِهِ لُغَةً وَفَنًا ، عَلّهُ يُبَيِّنُ بَعْضًا مِنْ كِثِيرِأُعْجِمَ ، وَيُفْحِمُ لَئِيمًا عَنْ نَشْرِ حَقِيقَةٍ أَحْجَمَ ، ، إِنَّهُ صَاحِبُ (طَبَقَاتِ الشُّعَرَاءِ) مُحَمَّدُ بنُ سَلاَّمٍ الجُمَحِيِّ (١)،وَإِنْ عَاصَرَهُ أَوْ سَبَقَهُ البَعْضُ مِنَ القُدَمَاءِ الذينَ أَبْدَوْا رَأْيَهُمْ في كَثِيرٍ مِنَ الأُمُورِ المُتَعَلِّقَةِ بِالشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ ، وَتَنَاوَلَهَا ابنُ سَلاّمٍ بِطَرِيقَةٍ مُنَظَّمَةٍ في كِتَابِهِ "طَبَقَاتُ الشُّعَرَاءِ" الجُزْءِ الأَوَّلِ وهو يُفَرِّقُ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الشِّعْرِعلى لِسَانِ العَرَبِ الأَوَائِلِ وَكِلاهُمَا مُرْتَبِطٌ بِزَمَنٍ ، فَالأَوَّلُ أَبْيَاتٌ مِنَ الشِّعْرِ لَمْ تَصِلْ إلى الحَدِّ الَّذِي يُسَوِّغُ لَهَا أَنْ تُسَمَّى بِالقَصِيدةِ، وَذَلِكَ مَاقَبْلَ زَمَنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَهَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ . والثَّانِي مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ القَصِيدَةُ ، أَوِ الشِّعْرُ المُطَوَّلُ ، وَذَلِكَ على عَهْدِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَهَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ :" وَلَمْ يَكُنْ لِأَوَائِلِ العَرَبِ مِنَ الشِّعْرِ**

(١) مُحَمَّدُ بنُ سَلاَّمٍ الجُمَحِيُّ : مِنْ عُلَمَاءِ أَوَاخِرِ القَرْنِ الثَّانِي مِنَ الهِجْرَةِ وَأَوَائِلِ الثَّالِثِ .أَحَدُ الإِخْبَارِيينَ وَالرُّوَاةِ (١) ، وَمِنْ جُمْلَةِ أَهْلِ الأَدَبِ (٢) وَنَحْوِيٌّ أَخَذَ النَّحْوَ عَنْ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ ، وَلُغَوِيٌّ عُدَّ في الطَّبَقَةِ الخَامِسَةِ مِنَ اللُّغَوِيِّينَ البَصْرِيينَ (٣) ، وَهُوَ يُعَدُّ أَحَدَ كِبَارِ نَقَدَةِ الشِّعْرِ وَالنُّقَادِ فِيهِ ؛ أَلَّفَ كِتَابًا أَوْ كِتَابَيْنِ في طَبَقَاتِ الشُّعَرَاءِ .

كَانَ ابْنُ سَلاَّمٍ بَصْرِيًا ، فَعِرِفَ يُونُسَ وَخَلَفًا وَأَبَا عُبَيْدَةَ وَالأَصْمَعِيَ ، وَرَأَى المُفَضَّلَ الضَّبِّيَّ حِينَ قَدِمَ هَذَا إِلى البَصْرَةِ ، عَرِفَ كُلَّ هَؤُلاءِ مَعْرِفَةً عِلْمِيَّةً وَتَرَبَّى في بِيئَتِهِمْ ، وَعَلَى أَذْوَاقِهِمْ، وَخَاضَ في كُلِّ مَاخَاضُوافِيهِ مِنَ المَسَائِلِ الأَدَبِيَّةِ .(٤)

---

١ ابن النديم . الفهرست .

٢ الأنباري . نزهة الألباء في طبقات الأدباء .

٣ الزبيدي الأندلسي . طبقات النحويين واللغويين .

٤ طه أحمد إبراهيم . محمد بن سلام الجمحي وكتابه طبقات الشعراء. ص١٤ دار الكتب العلمية بيروت لبنان٢٠٠٠م .

- شَارِكَ غَيْرَهُ مِنَ النُّقَّادِ وَاللُّغَوِيِّينَ ، فَكَانَ أَوَّلَ الْمُؤَلِّفِينَ في النَّقْدِ ؛ لأَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ أَوْدَعَ كُلَّ المَعَارِفِ في النَّقْدِ كِتَابًا ، لَعَلَّهُ أَسْبَقُ الكُتُبِ في ذَلِكَ .

إلاَّ الأَبْيَاتُ يَقُولُهَا الرَّجُلُ في حَاجَتِهِ ، وَإِنَّمَا قُصِّدَتِ القَصَائِدُ وَطُوِّلَ الشِّعْرُ على عَهْدِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَهَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ. وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلى إِسْقَاطِ شِعْرِ عَادٍ وَثَمُودَ وَحِمْيَر وَتُبَّعٍ."(٥)

أَمَّا أَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ القَصَائِدَ كَمَا يَرَى ابنُ سَلاَّمٍ في طَبَقَاتِهِ هُوَ المُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةُ التَّغْلِبِيُّ :" أَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ القَصَائِدَ وَذَكَرَ الوَقَائِعَ ، المُهَلْهِلُ بنُ رَبِيعَةَ التَّغْلِبِيُّ في قَتْلِ أَخِيهِ كُلَيْبٍ وَائِل قَتَلَهُ بَنُو شَيْبَانَ – وَكَانَ اسمُ المُهَلْهِلِ عَدِيًّا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ مُهَلْهِلاً لِهَلْهَلَةِ شِعْرِهِ كَهَلْهَلَةِ الثَّوْبِ، وَهُوَ اضْطِرَابُهُ وَاخْتِلافُهُ ، وَمِنْ ذَلكَ قَوْلُ النَّابِغَةِ :

أَتَاكَ بِقَوْلٍ هَلْهَلِ النَّسْجِ كَاذِبٍ وَلَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعُ(٦)

* وَقَدْ ذَهَبَ الأُسْتَاذُ مَحْمُودُ شَاكِر مُحَقِّقُ كِتَابِ (الطَّبَقَات) على أَنَّ مَاذَهَبَ إِلَيْهِ ابنُ سَلاَّمٍ ، وَغَيْرُهُ مِنَ المُتَقَدِّمِينَ بَاطِلٌ وَهُوَبِصَدَدِ التَّعْلِيقِ على تَقْصِيدِ القَصَائِدِ على عَهْدِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَهَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ يَقُولُ :" هَكَذَا يَرَى ابنُ سَلاَّمٍ وَغَيْرُهُ مِنَ المُتَقَدِّمِينَ ، وَهُوَ عِنْدِي بَاطِلٌ ، فَالشِّعْرُ أَقْدَمُ مِمَّا يَزْعُمُ ، وَطَوِيلُهُ أَعْتَقُ مِمَّا يَتَوَهَّمُ وَلَيْتَهُ قَالَ هُنَا مَاقَالَهُ مُنْذُ قَلِيلٍ في سَبَبِ ذِهَابِ شِعْرِعَبِيدٍ وَطَرَفَةَ ، أَنَّ قِدَمِهِمَا كَانَ السَّبَبَ في قِلَّةِ مَا رُوِيَ عَنْهُمَا .فَإِذَا صَحَّ ذَلكَ ، فَمَنْ كَانَ قَبْلَهُمَا أَجْدرَ أَنْ يَذْهَبَ مِنْ كَلَامِهِ أَكْثَرَ مِمَّا ذَهَبَ مِنْ كَلامِهِمَا (٧) في حِينِ أَنَّ مِنَ القُدَمَاءِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الأَفْوَهَ الأَوْدِيِّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ القَصِيدَةَ ، أَوْ أَنَّهُ ابنُ حِذَامٍ (٨)

ثُمَّ يَضْرِبُ ابْنُ سَلاَّمٍ أَمْثِلَةً مِنْ قَدِيمِ الشِّعْرِ الصَّحِيحِ لِلْعَنبَرِ بْنِ عَمْرِو بنِ تَمِيمٍ :" فَمِنْ قَدِيمِ الشِّعْرِالصَحِيحِ قَوْلُ الْعَنْبَرِ بْنُ عَمْرُو ابنُ تَمِيمٍ، وَكَانَ جَاوَرَ في بَهْرَاءَ فَرَابَهُ رَيْبٌ فَقَالَ:(٩)

قَدْ رَابَنِي مِنْ دَلْوِيَ اضْطِرَابُهَا

وَالنَّأْيُ في بَهْرَاءَ وَاغْتِرَابُها

---

٥ ابن سلام الجمحي . طبقات الشعراء . ج١ ص ٢٦

٦ المصدر السابق . ج ١ . ص ٣٩ .

٧ المصدر السابق . ج١ . هامش ص ٣٦ .

٨ جلال الدين السيوطي. المزهر في علوم اللغة وأنواعها .شرح وتحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين .ط دار إحياء الكتب العربية,ج٢ ص ٤٧٧ . " والأفوه الأودي هو : صلاءة بن عمرو بن مالك

٩ ابن سلام . طبقات الشعراء . ج١ . ص ٢٦ ، ٢٧ .

إِنْ لاّ تَجِئْ مَلْأَى يَجِئْ قِرَابهَا

*وَمِنْ قَدِيمِ الشِّعْرِ مَايُرْوَى لِدُوَيْدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ نَهْدٍ:" وَمِمَّا يُرْوَى مِنْ قَدِيمِ الشِّعْرِ قَوْلُ دُوَيْدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ نَهْدٍ،قَالَ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ :([10])

الْيَوْمَ يُبْنَى لِدُوَيْدٍ بَيْتُـهُ لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بِلَىً أَبْلَيْتُهُ

أَوْ كَانَ قِرْنِي وَاحِدًا كَفَيْتُهُ يَارُبَّ نَهْبٍ صَالِحٍ حَوَيْتُهُ

وَرُبَّ غَيْلٍ حَسَنٍ لَوَيتُـهُ وَمِعْصَمٍ مُخَضَّبٍ ثَنَيتُهُ

وَقَالَ أَيْضًا :([11]) أَلْقَى عَلَيَّ الدَّهْرُ رِجْلاً وَيَدًا

وَالدَّهْرُ مَاأَصْلَحَ يَوْمًا أَفْسَدَا

يُصْلِحُهُ الْيَوْمَ وَيفْسِدُهُ غَدَا

قَالَ : وَأَوْصَى بَنِيهِ عِنْدَ مَوْتِهِ فَقَالَ : أُوصِيكُمْ بِالنَّاسِ شَرّا ، لا تَقْبَلُوا

لَهُمْ مَعْذِرَةً ، وَلا تُقِيلُوهُمْ عَثْرَةً

وَيُعَدِّدُ بَعْدَهُ لِبَعْضِ الشِّعْرِ الصَّحِيحِ لأَسْمَاءِ شُعَرَاءِ:

وَقَالَ أَعْصُرُ بْنُ قَيْسِ بْنِ عَيْلانَ ، وَهُوَ مُنَبِّهٌ ،أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٌّ والطّفَاوَةُ :([12])

قَالَتْ عُمَيْرَةُ: مَالِرَأْسِكَ بَعْدَ مَا نَفِدَ الزَّمَانُ أَتَى بِلَوْنٍ مُنْكَرِ أَعُمَيْرَ إِنَّ أَبَاكَ

شَيَّبَ رَأْسَهُ كَرُّ اللَّيَالِي وَاخْتِلَافُ الأَعْصُرِ

فَبِهَذَا الْبَيْتِ سُمِّيَ أَعْصُرَ،وَقَدْ يَقُولُ قَوْمٌ : يَعْصُرُ ،وَلَيْسَ بِشَيءٍ .

* وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رَبِيعَةُ بنُ كَعْبِ بْنُ سَعْدِ بْنُ زَيْدِ مَنَاةِ بْنُ تَمِيمٍ كَانَ قَدِيمًا ،

وَبقِيَ طَوِيلاً حَتَّى قَالَ :([13])

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاةِ وَطُولِهَا وَازْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِينَ مِئِينَا

مِئَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِئَتَانِ لِي وَازْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ سِنِينَا

هَلْ مَا بَقَا إِلاَّ كَمَا قَدْ فَاتَنَا يَوْمٌ يَكُرُّوَلَيْلَةٌ تَحْدُونَا

---

١٠ المصدر السابق ج١ .ص٣٢ .

١١ المصدر السابق ج١ .ص٣٢

١٢ المصدر السابق ج١ .ص٣٣

١٣ المصدر السابق ج١ .ص٣٣

* وَمِنْهُمْ زُهَيْرٌ بْنُ جَنَابٍ الكَلْبِيّ ، كَانَ قَدِيمًا شَرِيفَ الوَلَدِ ، وَطَالَ عُمْرُهُ فَقَالَ :([١٤]) أَبَنِيَّ إِنْ أَهْلِكْ فَإِنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكُمْ بَنِيَّهْ

وَجَعَلْتُكُمْ أَبْنَاءَ سَا دَاتِ زِنَادُكمُ وَرِيَّهْ

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الفَتَى قَدْ نِلْتُهُ ، إِلاَّ التَّحِيَّهْ

* وَقَالَ جَذِيمَةُ الأَبْرَشُ : ([١٥])

رُبَّمَا أَوْفَيْتُ في علَمٍ تَرْفَعْنَ ثَوْبِي شَمَالاتُ

في فُتُوٍّ أَنَا رَا بِئُهُمْ مِنْ كَلَالِ غَزْوَةٍ مَاتُوا

لَيْتَ شِعْرِي مَا أَمَاتَهُمُ؟ نَحْنُ أَدْلَجْنَا وَهُمْ بَاتُوا

* ثُمَّ قَالَ : وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ : ([١٦])

عُوجَا على الطَّلَلِ المُحِيلِ لَعَلَّنَا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حِذَامِ

وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَيِّئٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ الذِي بَكَى فِيهِ ، وَلا شِعْرًا غَيْرَ هَذا البَيتِ الذي ذَكَرَهُ امْرُؤُ القَيْسِ .

* ثُمَّ يَذْكُرُ أَنَّ الشِّعْرَالجَاهِلِيَّ قَدْ بَدَأَ في رَبِيعَةَ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ في قَيْسٍ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إلى تَمِيمٍ ، وَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ إلى اليَوْمِ . :" وَكَانَ شُعَرَاءُ الجَاهِلِيَّةِ في رَبِيعَةَ : أَوَّلُهُمْ الْمُهَلْهِلُ ، وَالمُرَقِّشَانِ ، وَسَعْدُ ابنُ مَالِكٍ. وَطَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ ، وَعَمْرُوبْنُ قَمِيئَة ، وَالحَارِثُ بْنُ حِلِّزَة ، المُتَلَمِّسُ وَالأَعْشَى ، وَالمُسَيَّبُ بنُ عِلِّس . ثُمَّ تَحَوَّل في قَيْسٍ . فَمِنْهُمْ : النَّابِغَةُ الذّبْيَانِيُّ وَهُمْ يَعُدُّونَ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى مِنْ عَبدِ اللهِ بنِ غَطْفَانَ ، وابْنَهُ كَعْبًا وَلبِيدَ ، والنَّابِغَةَ الْجَعْدِيَّ ، وَالْحُطَيْئَةَ ، والشَّمَّاخَ ، وَأَخُوهُ مُزَرِّد ، وَخِدَاش بن زُهَيْرٍ ، ثمَّ آلَ ذلكَ إلى تَمِيمٍ ، فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ إلى اليومَ .([١٧])

* ابنُ قُتَيْبَةَ (٢١٣هـ ٢٧٦هـ) في مُؤَلَّفِهِ (الشِّعْرُ والشُّعَرَاءُ) قَدْ سَلَكَ فِيهِ مَسْلَكًا أَخْبَرَ هُوَ في بِدَايَةِ الجُزْءِ الأَوَّلِ عَنْ مَنْهَجِهِ في الكتابِ ، " هذا كِتابٌ أَلَّفْتُهُ في الشُّعَرَاءِ ، أَخْبَرْتُ فِيهِ عنِ الشُّعَرَاءِ وَأَزْمَانِهِمْ ، وَأَقْدَارِهِمْ ، وَأَحْوَالِهِمْ في أَشْعَارِهِمْ ، وَقَبَائِلِهِمْ ، وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ ،

١٤ المصدر السابق . ج١ . ص٣٦

١٥ المصدر السابق . ج١ . ص ٣٧

١٦ المصدر السابق .ج١ . ص٣٩

١٧ المصدر السابق . ص٤٠ .

وَمَنْ كَانَ يُعْرَفُ بِاللَّقَبِ أَوْبِالكُنْيَةِ مِنْهُمْ .وَعَمَّا يُسْتَحْسَنُ مِنْ أَخْبَارِ الرَّجُلِ وَيُسْتَجَادُ مِنْ شِعْرِهِ، وَمَاأَخَذَتْهُ العُلَمَاءُ عَلَيْهِمْ مِنَ الغَلَطِ وَالخِطَاءِ فِي أَلْفَاظِهِمْ أَوْمَعَانِيهِمْ ،وَمَا سَبَقَ إِلَيْهِ المُتَقَدِّمُونَ فَأَخَذَهُ عَنْهُمُ المُتَأَخِّرُونَ"(١٨)

فَقَدْ تنَاوَلَ الشُّعَرَاءَ الْمَشْهُورِينَ، الذينَ يَعْرِفُهُمْ مُعْظَمُ أَهَلِ الأَدَبِ ، وَيُحْتَجُّ بِشِعْرِهِمْ فِي الغَرِيبِ وَالنَّحْوِوَكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَحَادِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَلَّمَا ذَكَرَ غَيْرَ المَعْرُوفِينَ مِنَ الشُّعَرَاءِ :" وَكَانَ أَكْثَرُ قَصْدِي لِلْمَشْهُورِينَ مِنَ الشُّعَرَاءِ الذِينَ يَعْرِفُهُمْ جُلُّ أَهْلِ الأَدَبِ ، وَالذِينَ يَقَعُ الاحْتِجَاجُ بِأَشْعَارِهِمْ فِي الغَرِيبِ ، وَفِي النَّحْوِ ، وَفِي كِتابِ اللهِ عَزَّ وجلّ ، وَحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فأَمَّا مَنْ خَفِيَ اسْمُهُ ، وَقَلَّ ذِكْرُهُ ، وَكَسَدَ شِعْرُهُ ، وَكَانَ لا يَعْرِفُهُ إِلاَّ بَعْضُ الْخَوَاصِّ، فَمَا أَقَلَّ مَنْ ذَكَرْتُ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ ، إِذْ كُنْتُ لا أَعْرِفُ مِنْهُمْ إِلاَّ القَلِيلَ ...."(١٩)

ثُمَّ يَتَحَدثُ عنْ كَثْرَةِ الشُّعَرَاءِ المَعْرُوفِينَ بِالشِّعْرِ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلامِ ، فَهُمْ أَكْثَرُمِنْ أَنْ يُحْصَوْا :" وَالشُّعَرَاءُ المَعْرُوفُونَ بِالشِّعْرِ عِنْدَ عَشَائِرِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلامِ ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِمْ مُحِيطٌ أَوْ يَقِفَ مِنْ وَرَاءِ عَدَدِهِمْ وَاقِفٌ ، وَلَوْ أَنْفَدَ عُمْرَهُ فِي التَّنْقِيرِ عَنْهُمْ ، وَاسْتَفْرَغَ مَجْهُودَهُ فِي الْبَحْثِ وَالسُّؤَالِ. ولاأَحْسبُ أَحَدًا مِنْ عُلَمَائِنَا اسْتَغْرَقَ شِعْرَ قَبِيلَةٍ حتَّى لمْ يَفُتْهُ مِنْ تِلكَ القَبِيلَةِ شَاعِرٌ إِلاَّ عَرَفَهُ ، وَلا قَصِيدَةٌ إِلاَّ رَوَاهَا " (٢٠)

وَعِندَمَا يَتَحَدَثُ عَنْ أَوَّلِيَّةِ الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ نَرَاهُ فِي عُجَالةٍ سَرِيعَةٍ يقُولُ :" لَمْ يَكُنْ لأَوَائِلِ الشُّعَرَاءِ إِلاَّ الأَبْيَاتُ الْقَلِيلةُ يقُولَهَا الرَّجُلُ عِنْدَ حُدُوثِ الحَاجَةِ "(٢١) ثُمَّ يُورِدُ بعْضًا مِنْ قَدِيمِ الشِّعْرِ قَوْلَ " دُوَيْدِ بنِ نَهدِ القُضَاعِيِّ * (٢٢)

اليَوْمَ يُبْنَى لِدُوَيْدٍ بَيْتُهُ لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بِلًى أَبْلَيْتُهُ
أَوْ كَانَ قِرْنِي وَاحِدًا كَفَيْتُهُ يَارُبَّ نَهْبٍ صَالِحٍ حَوَيْتُهُ

١٨ ابن قتيبة.الشعر والشعراء.ج١ص٦٥ .ط٣. ١٩٧٧ .تحقيق أحمد شاكر .
١٩ المصدر السابق .ج١ .ص٦٥ .
٢٠ المصدر السابق . الجزء الأول . ص٦٦
٢١ المصدر السابق . الجزء الأول . ص ١١٠
٢٢ المصدر السابق . الجزء الأول . ص ١١٠

وَرُبَّ غَيْلٍ حَسَنٍ لَوَيْتُهُ وَمِعْصَمٍ مُخَضَّبٍ ثَنَيْتُهُ

وَقَالَ: أَلْقَى عَلَىَّ الدَّهْرُ رِجْلاً وَيَدَا
وَالدَّهْرُ مَا أَصْلَحَ يَوْمًا أَفْسَدَا
يُصْلِحُهُ الْيَوْمَ وَيُفْسِدُهُ غَدَا

* وَهُوَ دُوَيْدُ بنُ زَيْدِ بْنُ نَهْدٍ ، قَالَ ابنُ دُرَيْدٍ في الاشْتِقَاقِ عَنْهُ :" وَهُوَ الذِي طَالَ عُمْرُهُ وَلَهُ حَدِيثٌ " وَفي أَخْبَارِ المُعَمِّرِينَ لأَبِي حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِي(ص٢٠ طبعة مصر) أَنَّهُ عَاشَ ٤٥٦ سنة ، وَأَدرَكَ الإسْلامَ ، وَهُوَ لا يَعْقِلُ .

ثُمَّ يتَحدَّثُ عَنْ امرئِ القَيْسِ مُخْتَارًا بَعْضَ مَا اسْتَجَادَ مِنْ شِعْرِهِ ، لِيُمَثِّلَ حَيَاتَهُ بِشِقَّيْهَا ، فتْرَةِ الشَّبابِ وَاللَّهْوِ ،وَفتْرَةِ الأَخْذِ بِالثَّأْرِ لِمَقتَلِ وَالدِهِ ،وَمَاتَفَرَّدَ بِهِ مَنْ سَبَقَ ، وَمَا اسْتَجَادَ مِنْ تَشْبِيهَاتِهِ ، وَوَصْفِ الفَرَسِ وَالنَّاقَةِ ، وَمَا يَتَمَثَّلُ بِهِ مِنْ شِعْرِهِ،وَمَا يَتَغَنَّى بِهِ ، وَمَا أَخَذَهُ الشُّعَرَاءُ مِنْ شِعْرِهِ ، وَالمَآخِذِ التي عِيبَ عَلَيْهَا .

ثُمَّ يتَنَاوَلُ "زُهَيْرَ بنَ أَبِي سُلْمى " وَابْنَهُ " كَعْبًا بنَ زُهَيْرٍ " ثُمَّ النَّابِغَةَ الذُّبْيَانِيَّ " ثُمَّ " المُسَيَّبَ بنَ عِلَّسٍ " ثُمَّ " الْمُتَلَمِّسَ " ثُمَّ " طَرْفَةَ بنَ العَبْدِ " ثُمَّ " الحَارِثَ بنَ حِلِّزَةَ " ثُمَّ " لَقِيطَ بنَ مُعَمَّرٍ " ثُمَّ "أَوْسَ بنَ حجرَ" ثُمَّ "المُرَقِّشَ الأَكبَرَ " ثُمَّ "المُرَقِّشَ الأَصْغَرَ " ثُمَّ " علْقَمَةَ بنَ عَبَدَةَ " ثُمَّ " الأَفْوَهَ الأَوْدِيَّ " ثُمَّ "عدِيَّ بنَ زَيْدٍ العبَادِيَّ" ثُمَّ " عَمْراً بنَ كُلْثُومٍ " ثُمَّ " أَبا دُؤَادٍ الإيادِيِّ " ثمَّ " حَاتمَ بنَ عبد اللهِ الطَّائِيَّ " ثُمَّ " عَنْتَرَةَ بنَ شَدَّادَ " ثُمَّ " الأَسْوَدَ بنَ يَعْفُرَ " ثُمَّ " الأَعْشَى مَيْمُونَ بنَ قَيْسٍ " ثُمَّ " عَبِيدَ بنَ الأَبْرَصَ (الأَسْدِيَّ) ثُمَّ " بِشْرَ بنَ أَبِي خَازِمٍ " ثُمَّ " سَلامَةَ بنَ جَنْدَلٍ " ثُمَّ " لَبِيدَ بنَ رَبِيعَةَ " ثُمَّ " زَيْدَ الخَيْلِ " ثُمَّ " النَّابغَةَ الجَعْدِيَّ " ثُمَّ " مُهَلْهِلَ بنَ رَبِيعَةَ " ثُمَّ " أَبَا زَبِيدٍ الطَّائِيَّ " ثُمَّ .....، ....، ..... لِيَنتَهِيَ الجُزْءُ الأَوَّلُ وَقَدْ تَنَاوَلَ فِيهِ ثمانيَةً وَتِسْعِينَ شَاعِرًا كان آخِرَهُمْ الشَّاعِرُ" مِسْكِينُ الدَّارِمِيُّ " ، ثمَّ يبْدأُ الجُزْءُ الثَّانِي لِيبْدَأَ بِالشَّاعِرِ " عُمَرَ بنِ أَبِي رَبِيعَةَ " وَينتهِيَ بِالشَّاعِرِ " أَشْجَعَ السَّلمِيِّ " لِيكُونَ عَدَدُ مَنْ تَنَاوَلَهُمْ ابنُ قُتَيبَةَ مِائتين وَستَّةً مِنَ الشُّعَرَاءِ مَابَيْنَ جَاهِلِيِّينَ وَإِسْلامِيِّينَ .

ويَبْدُو مِنْ خِلالِ تَنَاوُلِ ابنِ قُتَيْبَةَ لِلشُّعَرَاءِ الذينَ تَنَاوَلَهُمْ بيْنَ دَفَّتَيِ مُؤَلَّفِهِ وُفْقَ منْهَجِهِ الذي اسْتَنَّهُ في بِدَايَةِ الْمُؤَلَّفِ ، وَالْكَيْفِيَّةِ التي ارْتَضَاهَا في العَرْضِ لِكُلِّ شَاعِرٍ ، قَدْ تَجِدُ اسْتِحْسَانًا مِنْ بَعْضِ المُشْتَغِلِينَ بِالنَّقْدِ الأَدَبِيِّ ، أَوِ الدَّارِسِينَ لَهُ ، وَقَدْ لاتَرُوقُ لِلآخَرِينَ ، وَكلٌّ لَهُ مَايُبَرِّرُ اسْتِحْسَانَهُ ، أَوْ عَدَمَ رَوَقَانِهِ ، وَقَدْ بَدَا جَلِيًا دِفَاعُ مُحَقِّقِ الكِتَابِ الأُسْتاذُ

(أَحْمدُ مُحَمَّد شَاكِر) عَنِ الكِتَابِ وَمُؤَلِّفِهِ فيقُولُ :" هَذا الكِتَابُ مِنْ مَصَادِرِ الأَدَبِ الأُولَى ، وَمِمَّا أَبْقَى لَنَا حَدثَانُ الدَّهْرِ مِنْ آثَارِ أَئِمَّتِنا الأَقْدِمينَ . أَلَّفَهُ إِمَامُ ثِقَةٌ حُجَّةٌ مِنْ أَوْعِيَةِ العِلْمِ.وَأَوَّلُ ميزَةٍ يَرَاهَا القَارِئُ المُتَأمِلُ في الكِتابِ أَنَّ اخْتِيارَ المُؤَلِّفِ لِبعْضِ شِعْرِ الشَّاعِرِ اخْتِيَارُ عَالمٍ بِالشِّعْرِ عارفٍ بِهِ فقِيهٍ فيهِ ، فَهُوَ يَخْتَارُ فيُحْسِنُ الاخْتِيارَ ، وَيَنْقُدُ فيُحْسِنُ النَّقْدَ وَيُجِيدُ ، ويُوَازِنُ بَيْنَ الشُّعَرَاءِ فَيُقِيمُ الوَزْنَ بِالقِسْطِ ، لا يَحِيدُ ولا يَمِيلُ ."([٢٣])

وَأَوَرَدَ في التَّعْرِيفِ بِهِ :" عَلَمٌ مِنْ أَعْلامِ الإِسْلامِ ، وَإِمَامٌ حُجَّةٌ مِنْ أَئِمَةِ العِلْمِ ، وَكَانَ لأَهْلِ السُّنَّةِ مِثلَ الجَاحِظِ لِلْمُعْتَزِلَةِ ،فَإِنَّهُ خَطِيبُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، كَمَا أَنَّ الجَاحِظَ خَطِيبُ المُعْتَزِلَةِ.([٢٤])

وَيَنْقِلُ عَنْ (مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَق) المَعْرُوفِ بِابنِ النَّدِيمِ ، في كِتَابِ (الفِهْرِسْت) :" وَكَانَ صَادِقًا فِيمَا يَرْوِيهِ ، عَالِمًا بِاللُّغَةِ وَالنَّحْوِ وَغَرِيبِ القُرْآنِ وَمَعَانِيهِ وَالشِّعْرِ وَالفِقْهِ، كَثِيرِ التَّصْنِيفِ وَالتَّأْلِيفِ ، وَكُتُبِهِ بِالْجَبَلِ مَرْغُوبٍ فِيهَا ، وَمَوْلِدُه في مُسْتَهَلِّ رَجَبٍ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَمِائَتَينِ.(٢٥) وَقَدْ عَدَّدَ لَهُ مِنَ الْكُتُبِ ثَلاثَةً وَثَلاثِينَ كِتَابًا

أَمَّا (دي غويه) فَيُدَافِعُ عَنْ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَهُوَ بِصَدَدِ الرَّدِّ عَلى نَلدَكَة في ظَنِّهِ أَنَّ نُسْخَةَ مَخْطُوطَةِ (فينا) تَشْتَمِلُ على مُخْتَصَرٍ لِمُؤَلَّفِ ابنِ قُتَيْبَةَ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ في مُؤَلَّفِهِ بَعْضَ الشُّعَرَاءِ المُمْتَازِينَ ، في حِينِ أَنَّ شُعَرَاءَ أَقَلُّ شَأْنًا قَدْ ظَفَرُوا مِنَ الكِتَابِ بِمَكَانٍ يُذْكَرُونَ فِيهِ:" فَالحَقِيقَةُ فِيمَا يَبْدُو لِي هِيَ أَنَّ المُؤَلِّفَ أَمْلَى كِتَابَهُ مِنْ كُرَّاسَتِهِ في فَتَرَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَكَانَ يَسْتَعْمِلُ في كُلِّ مَرَّةٍ عِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةً ، وَيُضِيفُ أَحْيَانًا عِبَارَاتٍ مِنْ عِنْدِهِ ،وَيُهْمِلُ عِبَارَاتٍ كَانَ قَدْ أَمْلاهَا. وَنَصُّ بَعْضِ العَنَاوِينِ وَخُصُوصًا في الْجُزْءِ الأَوَّلِ مِنَ الكِتَابِ ، يَخْتَلِفُ في بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ في مُخْتَلَفِ المَخْطُوطَاتِ،إِلى حَدِّ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تُنْشَرَ مُسْتَقِلَّةً .

وَذلِكَ هُوَ السَّبَبُ عِنْدِي في أَنَّه لَمْ يَرِدْ ذِكْرُ بَعْضِ الشُّعَرَاءِ المُمْتَازِينَ ، في حِينِ أَنَّ شُعَرَاءَ أَقَلَّ شَأْنًا قَدْ ظَفَرُوا مِنَ الكِتَابِ بِمَكَانٍ يُذْكَرُونَ فِيهِ([٢٦])

---

٢٣ أحمد محمد شاكر . مقدمته لكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة .ج١ .ص٤١ .ط ٣ .١٩٧٧.

٢٤ المصدر السابق ص٥٥

٢٥ ابن النديم.الفهرست .ص١١٥ ١١٦ .طالمكتبة التجارية بمصر١٣٤٨ هـ.عن أحمد شاكرفي مقدمته ص٥٥

٢٦ دي غويه .المقدمة اللاتينية التي كتبها للكتاب . ترجمة الأستاذ وهيب كامل. ص٤٨ .الجزء الأول .

*** ابْنُ رَشِيقٍ القَيْرَوَانِي**

يَذْهَبُ ابنُ رَشِيقٍ إِلى أَنَّ سَبَبَ اخْتِرَاعِ الشِّعْرِ عِنْدَ العَرَبِ حَاجَتُهُمْ إِلى الغِنَاءِ بِمَكَارِمِ أَخْلاقِهِا ،وَكُلِّ الصِّفَاتِ الكَرِيمَةِ ، فَتَوَهَمُوا أَعَارِيضَ فَعَمَلوهَا مَوَازِينَ لِلْكَلامِ ، وَسَمَّوْهُ شِعْرًا :" كَانَ الكَلامُ كُلُّهُ مَنْثُورًا فَاحْتَاجَتْ العَرَبُ إِلى الغِنَاءِ بِمَكَارِمِ أَخْلاقِهَا ، وَطِيبِ أَعْرَاقِهَا ، وَذِكْرِ أَيَّامِهَا الصَّالِحَةِ ، وَأَوْطَانِهَا النَّازِحَةِ ،وَفُرْسَانِهَا الأَنْجَادِ ، وَسُمَحَائِهَا الأَ جْوَادِ ، لِتَهُزَّ نُفُوسَهَا إِلى الْكَرَمِ ، وَتَدُلَّ أَبْنَاءَهَا على حُسْنِ الشِّيَمِ ، فَتَوَهَّمُوا أَعَارِيضَ فَعَمَلُوهَا مَوَازِينَ لِلْكَلامِ ، فَلَمَّا تمّ لَهُمْ وَزْنُهُ سَمَّوْهُ شِعْرًا ؛لأَنَّهُمْ قَدْ شَعَرُوا بِهِ ،أَيْ فَطِنُوا لَهُ"([٢٧])

وَيَرَى البَاقِلاَّنِيُّ في كِتَابِهِ "إِعْجَازُ القُرْآنِ " :أَنَّ الْعَرَبَ بَدَأُوا بِالنَّثْرِ وَتَوَصَّلُوا مِنْهُ إِلى الشِّعْرِ وَكَانَ عُثُورُهُمْ عَلَيْهِ في الأَصْلِ بِالاتِّفَاقِ غَيْرَ مَقْصُودٍ إِلَيْهِ ،فَلَمَّا اسْتَحْسَنُوهُ وَاسْتَطَابُوهُ ،وَرَأَوْا الأَسْمَاعَ تَأْلَفُهُ وَالنُّفُوسُ تَقْبَلُهُ تَتَبَّعُوهُ وَتَعَلَّمُوهُ وَتَكَلَّفُوا بِهِ .

***مصطفى صادق الرافعي**

يَرَى أَنَّ مَانُقِلَ على أَلْسِنَةِ الرُّوَاةِ فِيهِ خَلْطٌ كَثِيرٌ ،وَكَثِيرٌ مِمّا نُقِلَ عَنِ الرُّوَاةِ إِذَا صَلُحَ أَنْ يُنْقَلَ لا يَصْلُحَ أَنْ يُعْقَلَ ،بَلْ يُعَدُّ مِنَ الْمُفْتَرَيَاتِ وَالأَقَاصِيصِ يَقُولُ :" إِذَا ذَهَبْنَا نَتَتَبَّعُ الشِّعْرَ العَرَبِيَّ إِلى أَوَّلِيَّتِهِ ، رَأَيْنَا لَدَيْنا مِنْ أَحْوَالِ الجَاهِلِيَّةِ تَارِيخًا سَقِيمَ التَّرْكِيبِ ،مُتَفَكِّكَ الأَجْزَاءِ مُضْطَرِبَ الجِهَّاتِ ، لايَكْشِفُ مِنْهُ التَّعَبُ وَلايَبْلغُ فِيهِ النَّصَبُ ،....وَقَدْ تَصَفَّحْنَا التَّوَارِيخَ العَرَبِيَّةَ ،وَرَاجَعْنَا مَانَقَلُوهُ عَنْ أَهْلِ الرِّوَايَةِ وَهُمْ مَصْدرُ آدَابِ الجَاهِلِيَّةِ وَأَخْبارِهَا ، فَرَأَينَا أَنَّ مَاكَتَبُوهُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا صَلُحَ أَنْ يُنْقَلَ لا يَصْلُحَ أَنْ يُعْقَلَ ، وَهَذا المَسْعُودِيُّ يَرْوِي فِي(مُرُوجِ الذَّهَبِ) أَشْعَارًا عَرَبِيَّةً لِلْقَبَائِلِ البَائِدَةِ كَعَادٍ وَثَمُودَ وَطسم وجَدِيس، وَهِيَ رُوَايَاتٌ لايُقَيِّدُهَا بِتَارِيخٍ وَلا يَحُدُّهَا بِزَمَنٍ ، فَيُمْكِنُ على ذَلِكَ أَنْ تَدْخُلَ في غمَارَاتِ الْمُفْتَرَيَاتِ والأَقَاصِيصِ .وَلَكِنّا رَأَيْنَاهُ يَذْكُرُ مِمَّنْ كَانَ في الفَتْرَةِ أَسْعَدَ أَبَا كَرْبٍ الحِمْيرِيّ أَوَّلَ مَنْ كَسَا الْكَعْبَةَ الأَنْطَاعَ وَالْبُرُودَ ، قَالَ :" وَكَانَ مُؤْمِنًا وَآمَنَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ

---

٢٧ ابن رشيق .العمدة ص

يُبْعَثَ بِسُبْعِمِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ على ذَلِكَ بِشِعْرٍ نَسَبَهُ إِلَيْهِ، وَهَذا مُنْتَهَى الْعجَبِ".(٢٨)

وَيَرْجِعُ هذا الخَلطُ في كَلامِ الرُّوَاةِ إِلى غفلتِهِمْ عن تاريخِ الوَقائعِ المعروفةِ ، وجهلِهِمْ بِما أَثْبَتَه الفُرْسُ والرُّومُ عن مُلُوكِ العَرَبِ التَّابِعِينَ لَهُمْ مِنْ المُنَاذِرةِ وَالغَسَاسِنَةِ :"وَقَدْ تَرَجَّحَ لَدَيْنَا أَنَّ سَبَبَ هذَا الخَلْطِ في كلامِ الرُّواةِ غَفْلَتِهِمْ عنْ تَارِيخِ الوَقَائِعِ المَعْرُوفَةِ ،وَجَهْلِهِمْ بِمَا أَثْبَتَهُ الفُرْسُ والرُّومُ في تَوَارِيخِهِمْ عَنْ مُلُوكِ العَرَبِ التَّابِعِينَ لَهُمْ مِنَ الْمَنَاذِرةِ وَالغَسَّانِيِّينَ، فَابْنُ قُتَيْبَةَ يَقُولُ في طَبَقَاتِهِ عَنْ زُهَيْرِ بنِ جُنَابٍ :أَنَّهُ جَاهِلِيٌّ قَدِيمٌ، ثُمَّ يَقُولُ: وَلَمّا قَدِمَتْ الحَبَشَةُ تُرِيدُ هَدْمَ الكَعْبَةِ بَعَثَهُ مَلِكُهُمْ إِلى أَرْضِ العِرَاقِ لِيَدْعُو مِنْ هُناكَ إِلى طَاعَتِهِ ،وَإِنَّمَا كَانَتْ حَادِثَةُ الكَعْبَةِ في القَرْنِ السَّادِسِ لِلمِيلادِ، وَنَسَبَ ابنُ قُتَيْبَةَ لِزُهَيْرٍ هذا البَيْتَ المَشْهُورَ :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الفَتَى قَدْ نِلْتُهُ إِلاَّ التَّحِيَّة

وَهَذا البَيْتُ نَسَبَهُ غَيْرُهُ لِلُجَيْمِ بنِ صَعْبٍ، وَعَدَّهُ صَاحِبُ المُزْهِرِ إِلى قُدَمَاءِ الشُّعَرَاءِ. وَكُلُّ مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ مِنْ أَقْوَالِهِمْ في قِدَمِ الشِّعْرِ يُمْكِنُنَا أَنْ نُورِدَهُ أَمْثِلَةً على ذَلِكَ الخَلْطِ "(٢٩)

ثُمَّ إِنَّهُ في النِّهَايَةِ يَذْهَبُ مَعَ الرَّأْيِ القَائِلِ بِأَنَّ عُمْرَ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ

لا يَتَجَاوَزُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيِّ سَنَةٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ على التَّحْقِيقِ ، يَقُولُ :"وَالَّذِي عِنْدَنَا أَنَّ أَوَّلِيَّةَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ لا تَرْتَفِعُ عَنْ مِائَتَيِّ سَنَةٍ قَبْلَ الْهَجْرَةِ ،.."(٣٠) .

وَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ المَقْصُودَ مِنْ كَلِمَةِ الشِّعْرِ لَيْسَ التَّصَوُّرَاتِ وَالمَعَانِي ،وَلا مُطْلَقَ مَايُوصَفُ بِالشِّعْرِ اصْطِلاحًا ،وَإِنَّمَا قُصِدَ بِالشِّعْرِ المَوْزُونِ المُقَفَّى بِاللُّغَةِ التي وَصَلَتْنَا وَهِيَ اللُّغَةُ المُضَرِيَّةِ :"وَلا يَذْهَبُ عَنْكَ أَنَّنَا نُرِيدُ بِالشِّعْرِ التَّصَوُّرَاتِ والْمَعَانِيَ ، فهذهِ فِطْرِيَّةٌ في الإِنْسَانِ ، وَلابُدَّ أَنْ تَكُونَ قَدِ اسْتَقَلَّتْ طَرِيقَتَهَا في العَرَبِ مِنْ أَزْمَانِهِمْ إِلى مَاوَرَاءَ أَلْفَيِّ سَنَةٍ قَبْلَ الْمِيلادِ ، وَكَذلِكَ لا نُرِيدُ بِالشِّعْرِ مُطْلَقَ ما اصْطَلَحُوا على وَصْفِهِ مِنْ ذلك ، فهذا قَدْ يكُونُ مِنْهُ شَئٌ في العَدْنانِيَّةِ قَبْلَ المِيلادِ أَوْ حَوَالَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ بِغَيْرِ اللُّغةِ المُضَرِيَّةِ طَبْعًا ، وَإِنَّمَا نُرِيدُ

٢٨ مصطفى صادق الرافعي.تاريخ آداب العرب الجزء الثاني .ط الأولى .الناشر مكتبة الإيمان .١٩٩٧ م .راجعه وضبطه عبدالله المنشاوي ومهدي البحقيري .

٢٩ المصدر السابق ص ١٥

٣٠ المصدر السابق ص ١٥

بِالشِّعْرِ هذا المَوْزُونَ المُقَفَّى ، بِاللُّغَةِ التي وَصَلَتْ إِلَيْنَا ، وَكُلُّ بَحْثٍ فِيمَا وَرَاءَ ذلك لا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ اللُّغَةِ نَفْسِهَا .(٣١)

وَأَنَّ لُغَةَ العَرَبِ الْعَدْنانيَّةَ بَعْدَ انْفِصَالِهَا عن اللُّغَةِ السَّامِيَّةِ ، هُذِّبَتْ وَصُفِّيَتْ حتى خَرَجَتْ مِنْهَا لُغَةُ مُضَرَ، وَمِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ خَرَجَ الشِّعْرُ:" ..فَإِنَّهَا انْفَصَلَتْ عن اللُّغَةِ السَّامِيَّةِ التي تَفَرَّعَتْ مِنْهَا، ثُمَّ اسْتَقَلَّتْ طَرِيقَتَهَا بِالوَضْعِ وَالارْتِجَالِ ، ثُمَّ أَخَذُوا في تَهْذِيبِهَا وَتَصْفِيتِهَا حتى خَرَجَتْ مِنْهَا لُغَةُ مُضَرَ ؛ وَمِنْ هذه اللُّغَةِ خَرَجَ الشِّعْرُ ، وَلا يَتَجَاوَزُ ذلكَ مِائَتِيَّ سَنَةٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ على الأَكْثَرِ.

وَلِذَا فَإِنَّ الْعَرَبَ لا تَرْوِي شِعْرَ أَبِي دُؤَادٍ وَعَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ ؛لأَنَّ أَلفَاظَهُمَا لَيْسَتْ بِنَجْدِيَّة، وَكَانَ عَدِيّ يَسْكُنُ بِالْحِيرَةِ وَيَدْخُلُ الأَرْيَافَ ، فَتْقُلَ لِسَانَهُ ، فَلابُدَّ أَنْ يَكُونَ أَسَاسُ الشِّعْرِ عِنْدَهُمْ على صَمِيمِ العَرَبِيَّةِ مِنْ لِسَانِ مُضَرَ ،ثُمَّ يَسُوقُ مِنَ الدَّلائِلِ على حَدَاثَةِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ ، مَا رَوُوهُ مِنْ أَنَّ كُلَّ قَبِيلَةٍ ادَّعَتْ لِشَاعِرِهَا أَنَّهُ الأَوَّلُ ،فادَّعَتْ اليَمَانِيَّةُ لامْرِئِ القَيْسِ،وَبنُو أَسَدٍ لِعَبِيدِ بنِ الأَبْرَصِ ،وَتغْلبُ لِمُهَلْهِلٍ ، وَبَكرٌ لِعَمْرِو بنِ قَمِيئَة وَالمُرَقِّشِ الأَكْبَرِ ، وإيادٌ لأَبِي دُؤَادٍ ، وَأَقدَمُ هَؤُلاءِ في القَرْنِ الرَّابِعِ لِلْمِيلادِ، وَليسَ يدُلُّ ذَلكَ على أَنَّهُمْ تَنَازَعُوا في أَوَّلِ مَنْ قَالَ الشِّعْرَ ، وَلَكنْ في أَوَّلِ مَنْ أَطَالَهُ وَتَصَرَّفَ فيه .وَدَليلٌ آخرُ ، وَهوَ أَنَّ لِعَبِيدِ بنِ الأَبرَصِ قَصِيدَتَهُ التي مَطْلعُهَا :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقطبيّات فالذّنوبُ

وهي مِمَّا لا يَسْتقِيمُ على وَزْنٍ مَعْرُوفٍ مِنْ أَوْزَانِهِمْ ،ولا يَطّرِدُ المَوْزُونُ مِنْهَا على وَزْنِهِ، وَهُمْ مع ذَلكَ يَرْوُونَهَا وَتُعَدُّ مِنْ مُفْرَدَاتِ قَائِلِهَا (٣٢)

وَيُرَجَّحُ الرَّأْيُ القَائِلُ بِأَنَّ عَدِيًّا بنَ رَبِيعَةَ التَّغْلبِيَّ الْمُلقَّبَ بِالْمُهَلْهِلِ هو أَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ القَصَائِدَ وَذَكَرَ الوَقَائِعَ في شِعْرِهِ ؛ لأَنَّهُ كَانَ غَزْلاً على هِمَّتِهِ ، زِيرَ نِسَاءٍ على شَجَاعَتِهِ ، وَكَانَ أَخُوهُ كُلَيْبُ بنُ وَائِلٍ الفَارِسُ المَشْهُورُ أَحَدَ الثَّلاثَةِ الذينَ اجْتَمَعتْ عليهم مَعَدٌّ ،وَهمْ عَامِرٌ بنُ الظَّرِبِ ،وَرَبِيعَةُ بنُ الحَارِثِ وَكُلَيْبٌ هذا ، فَلَمَّا قُتِلَ في الخَبَرِ المَعرُوفِ ، وَكَانَ قَتْلُهُ

٣١ المصدر السابق ص١٥، ١٦ .

٣٢ المصدر السابق ص ١٧

سَبَبَ الأَيَّامِ بَيْنَ بَكْرٍ وَتغْلِب ، سَيّرَ فِيهِ عَدِيٌّ قَصَائدَ عِدَّةً ، أَرَقَّ بِهَا الشِّعْرَ وَهَلْهَلَهُ ، وَبِهَذا السَّبَبُ لَزِمَهُ لَقَبُ الْمُهَلْهِلُ .(٣٣)

جورجي زيدان

يذْهَبُ جورجي زيدان في مُؤَلَّفِهِ " تَارِيخُ آدَابِ الُّلغَةِ العَرَبِيَّةِ " تَحْتَ عُنْوَانِ (كَيفَ بَدَأَ العَرَبُ يَنْظِمُونَ الشِّعْرَ ؟) إِلى أَنَّ العَرَبَ بَدأَتْ أَوَّلاً بِالسَّجْعِ ؛ لِتَقْيِيدِ عُلُومِهِمْ أَوْ مَايُرِيدُونَ حِفْظَهُ ، أَمَّا النَّظْمُ فَبَدَأَ بِالرَّجَزِ :" وَالغَالِبُ أَنَّهُمْ بَدَأُوا أَوَّلاً بِالسَّجْعِ بِلا وَزْنٍ نَحْوَ ما وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ سَجْعِ الكُهَّانِ يُغَنُونَهُ تَوْقِيعا على القَافِيَةِ .وَمِنْ أَمْثِلَةِ سَجْعِهِمْ قَوْلُهُمْ في الأَنْوَاءِ:إِذَا طَلَعَ السَّرَطَانُ اسْتَوَى الزَّمَانُ وَحَضَرَتِ الأَوْطَانُ وَتهَادَتِ الجِيرَانُ ...أَمَّا النَّظْمُ أَيْ القِيَاسُ بِالمَقَاطِعِ وَهُوَ الوَزْنُ ، فَأَبْسَطُهُ الرَّجَزُ وَهُوَ أَقْدَمُ أَوْزَانُ الشِّعْرِ..كُلُّ بيْتٍ مِنْهُ ينْفَرِدُ بقَافيَةٍ خَاصَّةٍ ، وهُوَ كَالسَّجْعِ لكِنَّهُ مَوْزُونٌ .والرَّجَزُ قدِيمٌ عنْدَهُمْ ،يَزْعُمُ العَرَبُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَهُ مُضَرُ بنُ نِزَارٍ ،إِذْ سَقَطَ عَنْ جَمَلٍ فَانْكَسَرَتْ يَدَهُ فَحَمَلُوهُ وهُوَ يَقولُ " وَايدَاهُ وَايَدَاهُ " وَكَانَ مِنْ أَحْسَنَ خَلْقِ اللهِ صَوْتًا فَأَصْغَتْ الإِبِلُ إِلَيْهِ وَجَدَّتْ في السَّيْرِ ، فَجَعَلَتِ الْعَرَبُ مِثَالاً لِقَوْلِهِ " هَايْدَا هَادْيَا" يَحْدُونَ بِهَا الإِبِلَ ."(٣٤).

كارل بروكلمان

في كِتَابِهِ "تاريخُ الأَدَبِ الْعَرَبِيِّ في الفَصْلِ الثَّانِي مِنَ البَابِ الأَوَّلِ بِعُنْوَانِ " أَوَّلِيَّةُ الشِّعْرِ " يَنْفِي أَنْ تكُونَ هُنَاكَ رُوَايَةٌ مَأْثُورَةٌ أَنْ تُقَدِّمَ خَبَرًا صَحِيحًا عَنْ أَوَّلِيَّةِ الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ فَيَقُولُ :"كَانَ شِعْرُ العَرَبِ فَنًا مُسْتَوفِيًا لأَسْبَابِ النُّضْجِ وَالكَمَالِ ، مُنْذُ ظَهَرَ العَرَبُ على صَفْحَةِ التَّارِيخِ ، وَلا تَسْتَطِيعُ رُوَايَةٌ مَأْثُورَةٌ أَنْ تُقَدِّمَ لَنَا خَبَرًا صَحِيحًا عنْ أَوَّلِيَّةِ الشِّعْرِ،وَإِذًا فلا يَسَعُنَا إِلاَّ أَنْ نَسْتَخْلِصَ مِنَ المُلابَسَاتِ الْمُشَابِهَةِ عِنْدَ شُعُوبٍ بِدَائِيَّةٍ أُخْرَى نَتَائِجَ مُعَيَّنَةً يُمْكِنُ تَطْبِيقُهَا أَيْضًا على العَرَبِ، إِذا قدَّمَتِ الأَحْوالُ المُمْكِنُ التَّعَرُّفُ عليها عندَ هَؤُلاءِ نِقاطًا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا في ذَلِكَ ."(٣٥)

---

٣٣ المصدر السابق ص ٢٢

٣٤ جرجي زيدان .تاريخ آداب اللغة العربية . الجزء الأول .دار الهلال .ص٥٥

٣٥ كارل بروكلمان .تاريخ الأدب العربي .مجلد ١ .الكتاب الأول أدب اللغة العربية من أوليته إلى سقوط الأمويين سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م . الفصل الثاني ص ٤٤ .ترجمة الدكتور عبد الرحمن النجار. دار المعارف .الطبعة الخامسة

إلاَّ أَنَّهُ يَرَى أَنَّ أَقدَمَ القَوَالِبِ الفَنِيَّةِ العَرَبِيَّةِ هُوَ السَّجْعُ، أَيْ النَّثْرُ المُقَفَّى المُجَرَّدُ مِنَ الوَزْنِ ، ثُمَّ تَرَقَّى السَّجْعُ إلى بَحْرِالرَّجَزِ ،الْمُتَأَلِّفِ مِنْ تكْرَارِ سَبَبَيْنِ وَوَتِدٍ لِيَسْهُلَ على السَّمْعِ، وَيَبْلُغَ أَثَرُهُ في النَّفْسِ، وَمِنْ الرَّجَزِ نَشَأ بِنَاءُ أَبْحُرِ العَرُوضِ على مِصْرَاعَيْنِ وَقَافِيَةٍ في الثَّانِي .

كَمَا أَنَّهُ يتَّهِمُ بِالضَّلالِ بَعْضَ العلمَاءِ في بَحْثِهِمْ عَنْ رَوَابِطَ بَيْنَ أَنْوَاعٍ مِنَ العَرُوضِ وَبَيْنَ سَيْرِ الإِبِلِ ،وَيَرَى أَنَّ هَذِهِ المُحَاوَلاتِ لمْ تُسْفِرْ عنْ نتِيجَةٍ ، وحتى مُحَاوَلةِ الكَشْفِ عَنِ الرَّوَابِطِ بَيْنَ بُحُورِالعَرُوضِ المُخْتَلفَةِ بَعْضِهَا مع بَعْضٍ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَبَينَهَا وَبيْنَ مَرْتَبَتِهَا السَّابِقَةِ في دَائِرَةِ بَحْرِ الرَّجَزِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، لمَ تَتَّضِحَ بَعْدُ لِلبَاحِثِ غَيْرِ الْمتحَيِّزِ .([٣٦])

كما ينفي ما زعمه " تكاتش" في كتابه(الشعر عند أرسطاليس) ووصفه بالضلال المبين:" ومن الضلال المبين مازعمه تكاتش من أن عروض العرب نشأ على أساس شعر اليونان.

فإن الرجز لا يشبه العروض اليوناني الثلاثى التفعيلات إلا شبها ظاهرا، ومما يدل على أن العروض العربي نشأ نشأة مستقلة فن الشعر عند البربر ، الذي أخذ ينمو نموا شبيها بفن العرب "([٣٧])

وفي الفصل الرابع تحت عنوان " طبيعة الشعر الجاهلي " يقول :" أقدم مانعرفه من الشعر المستند إلى مصادر صحيحة نسبيا لا يمتد إلى ماقبل المئة السابقة على مولد النبي صلى الله عليه وسلم "([٣٨]) كما أنه يرى أن نظام القصيدة والذي استقرت عليه في العصر الجاهلي ، والمؤلفة على نظام دقيق ، من استهلال بالنسيب ، والحنين إلى الحبيبة النائية عند رؤية الأطلال ،ثم وصف الرحلة والراحلة ، ثم يخلص في النهاية إلى التعبير عن حقيقة قصده إلا في آخر القصيدة ،يقول عنه :" هذا المنهج لابد أن يكون قد رسخ منذ زمن طويل "([٣٩])

---

٣٦ المصدر السابق ص٥١ ،ص٥٢

٣٧ المصدر السابق ص ٥٣

٣٨ المصدر السابق ص ٥٥

٣٩ المصدر السابق ص ٥٩ ،ص ٦٠

في حين عدّ الدكتور شوقي ضيف ماذهب إليه بعض القدماء والمحدثين من أن الرجزأقدم أوزان الشعر العربي،وأنه تولّد من السجع،مرتبطا بالحذاء ووقع أخفاف الإبل في أثناء سيرها وسراها في الصحراء،ومنه تولّدت الأوزان الأخرى غير أنّ هذا مجرد فرض.وكل ما يمكن أن يقال هو أنّ الرجز كان أكثر أوزان الشعرشيوعا في الجاهلية ،إذ كانوا يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب ،ولكن شيوعه لايعني قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى،إنما يعني أنه كان وزنا شعبيا لا أقل ولاأكثر.([٤٠])

العمر الزمني للشعر الجاهلي

تناول بعض القدماء في غير اتفاق العمر الزمني للشعر الجاهلي ، فمنهم من حصر الفترة الزمنية والتي ادّعت كلّ قبيلة فيها أن شاعرها أول من قصّد القصائد بأنّها لا تتجاوز مائة سنة أو نحوها

***فعمر بن شبة فيما يرويه ابن سلام الجمحي عنه :**

للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه([٤١]) والعلماء اختلفوا في ذلك، وادّعت القبائل كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ..... فادّعت اليمانية لامرئ القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلهل ، وبكر لعمر بن قميئة والمرقش الأكبر ، وإياد لأبي دؤاد وزعم بعضهم أنّ الأفوه الأودي من أقدم هؤلاء ، وأنه أول من قصّد القصيد، قال وهؤلاء النفر المدّعى لهم التقدم في الشعر متقاربون ، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها([٤٢])

وقول ابن سلام " ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة، وإنما قصدت القصائد ، وطوّل الشعر على عهد عبد المطّلب وهاشم بن عبد مناف ، وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع " ([٤٣])

---

٤٠ د/ شوقي ضيف . العصر الجاهلي .ص ١٨٥ ،١٨٦ .

٤١ السيوطي .المزهر .ص٤٧٧ . (نقلاً عن مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي . ص٦٧ .للدكتور حسين عطوان).

٤٢ ابن سلام الجمحي.طبقات الشعراء

٤٣ المصدر السابق .ص٢٦

ويقول في موضع آخر : " وكان أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل " .([٤٤])

ويقول في موضع ثالث : " كان امرؤ القيس بن حجر بعد مهلهل ومهلهل خاله ، وطرفة ، وعبيد ، وعمرو بن قميئة ، والمتلمس في عصر واحد ؛ وإذا كان هؤلاء هم الذين أطالوا الكلام، وقالوا القصيد فلا بد من نفي كل قصيدة تعزى إلى عهد أقدم من عهدهم ولابد إذن من نفي تلك القصائد التي وردت في سيرة ابن إسحاق . ([٤٥])

**** فيما يرى الجاحظ ، ومن تبعه من المحدثين أن العصر الأدبي**

المعروف لا يمكن أن يمتد إلى أكثر من مائتي عام على أقصى تقدير،يقول الجاحظ " أمّا الشعر فحديث الميلاد، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهّل الطريق إليه ، امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة .... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام"([٤٦])

ولكن الأستاذ / محمد محمود شاكر يتناول قضية أولية الشعر العربي وعمره الزمني في المحاضرة التي ألقاها في جامعة (الإمام محمدبن سعود) سنة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م ، وقد سميت هذه المحاضرة ب (قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام) ناقدا قول الجاحظ :" وإذن فقول الجاحظ :" إن الشعر حديث الميلاد صغير السن " قضية باطلة ، لابرهان عليها ،وليس لها دليل ،وهي مقالة لاأصل لها .وليس يبقى في أيدينا من استظهاره الذي استظهره إلا أمر واحد ،هو أن أمرأ القيس وخاله المهلهل من أقدم شعراءالجاهلية ، الذين انتهى إلينا شعرهم، فإذا كان ذلك فإن أكثر الذي انتهى إلينا من سائر قديم شعراء الجاهلية ، ولا يكاد يتجاوز عمره مئتي عام .

وهذا يوشك أن يكون حقا لاريب فيه ، ولكن يحسن أن تقيد هذه القضية بقيد لابد منه ، احترازا من التعميم الغامض ، هو أننا نعني القصائد الطوال المقصّدة ، دون مانسميه

---

٤٤ المصدر السابق .ص٣٩

٤٥ المصدر السابق .ص ٤١

٤٦ الجاحظ .الحيوان .١ :٧٤

المقطعات ، أو الأبيات ذوات العدد التي بلغتنا من قديم شعر الجاهلية "(٤٧) ثم بدا له قديما – أن الجاحظ أخذ هذا من حديثين وردا في امرئ القيس ،" امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار " و" صاحب لواء الشعراء إلى النار ، امرؤ القيس ؛ لأنه أول من أحكم الشعر"

يقول :" وقد بدا لي قديما أن أبا عثمان قد أخذ هذا من الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (رقم٧١٢٧) عن هشيم حدثنا أبو جهم الواسطيّ ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار " . وهذا الخبر نفسه رواه البخاري في الكنى ، قال:" قال مسدّد، حدثنا هشيم ، حدثنا شيخ يكنى أباجهم عن الزهري، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال :" صاحب لواء الشعراء إلى النار امرؤ القيس ؛ لأنه أول من أحكم الشعر"(٤٨).

وقد ظن أن الجاحظ أخذ من هذين الخبرين ماأخذ :" وكنت أظن ، أو أرجح أنه ترجم ماجاء في هذا الكلام :أن أمرأ القيس هو"أول من أحكم الشعر " فقال :" هوأول من نهج سبيل الشعر، وسهل الطريق إليه" ،والتشابه بين القولين ظاهر بين "(٤٩)

ثم تغير رأيه – فيما بعد – بعد شرحه لكتاب ابن سلام "طبقات فحول الشعراء " وابن سلام معاصر له ،وتراءى له –بل ثبت عنده – أن الجاحظ قد اطلع على نسخة من كتاب ابن سلام فنقل منها ،" وبدا له أن يصوغ من ذلك كله قضية ، يزيد فيها على ابن سلام ، فاجتهد فصاغ قضيته الأولى :" أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه ، امرؤ القيس ومهلهل بن ربيعة "(٥٠)

وأعجبه ما صاغ إعجابا مفرطا ، فإنه ابتدع مالم يسبق إليه ،ولم يبال بهذا الفرق الظاهر بين قوله هو :" أول من نهج سبيل الشعر وقول ابن سلام :" أول من قصّد القصائد " وقول الخبر الهالك أيضا:" أول من أحكم الشعر " فإن ألفاظ الخبرين جميعا لا

---

٤٧ محمود محمد شاكر .قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام .ص الناشر مطبعة المدني .المؤسسةالسعودية بمصر ،ودار المدني بجدة ١٩٩٧ م الطبعة الأولى .

٤٨ المصدر السابق ص١٥

٤٩ المصدر السابق ص١٥

٥٠ المصدر السابق ص١٦

تتناول الحكم على أولية الشعر نفسه ، بل هي صورة مقصورة على أولية تقصيد القصائد وذكر الوقائع فيها ، أو على أولية إحكام الشعر ، وأن مهلهلا وامرأ القيس كان لكل منهما الفضل الأول في ذلك "([٥١])

ويعلق الدكتور حسين عطوان على قول الجاحظ بقوله : "وأكبر الظن أن الجاحظ لم يردأن أول قصيدة نظمها شاعر جاهلي تعود إلى مائتي عام قبل الإسلام ، بل أراد أن بدائع هذا الشعر وروائعه التي توافرت فيها التقاليد الفنية ،لغوية كانت أو موسيقية أو تصويرية ، هي التي تظفر بها في خلال هذين القرنين ." ([٥٢])

ثم يؤكد على أن الشعر يعود إلى أكثر من مائتي عام غير أنه لايصل إلى أربعمائة سنة كما ذهب إلى ذلك (ثعلب) ([٥٣]) ؛ لأن الفصحى أخذت تفرض سلطانها على اللهجات القبلية منذ مطلع القرن الخامس الميلادي فقط .

ونراه يعلق على تمسك القدماء بأهداب قول ابن سلام :" إن المهلهل ابن ربيعة هو أول من قصد القصائد ، وذكر الوقائع ، وأنه سمي مهلهلا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب ، وهو اضطرابه ، واختلافه" ([٥٤]) رافضا قول ابن سلام لرواية يعلل فيها أبو العلاء المعري ([٥٥]) سبب التسمية بالمهلهل بقوله على لسان سائل يسأله لم سميت مهلهلا ؟ فقد قيل إنك سميت بذلك لأنك أول من هلهل الشعرأي أرقه . فيقول : إن الكذب لكثير ، وإنما كان لي أخ يقال له امرؤ القيس ، فأغار علينا زهير بن جناب الكلبي، فتبعه أخي في زرافة من قومه فقال في ذلك :

لما توغل في الكراع هجينهم هلهلت أثأر مالكا أو صنبلا

هلهلت أي قاربت ، ويقال توقّفت . يعني بالهجين زهير بن جناب فسمّي مهلهلا ، فلما هلك شبّهت به فقيل لي: مهلهل . فيقول : الآن شفيت صدري بحقيقة اليقين". والسبب الآخر الذي يرفض من أجله كل ما يردده القدماء من أنه أول من هلهل الشعر أو رقّقه ،

---

٥١ المصدر السابق ص ١٨ ،١٩

٥٢ الدكتور: حسين عطوان . مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي.ص٦٨ دار المعارف مصر

٥٣ انظر مجالس ثعلب ٢ :٤١١ ، والمزهر ٢ :٤٧٧

٥٤ ابن سلام .طبقات فحول الشعراءص٣٩

٥٥ ابو العلاء المعري . رسالة الغفران . ص١٠٥

وما يتصل بذلك من قولهم :إنه أول من تروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتا ([٥٦]) ، أو أول من نظم القصائد المطولة هو أن القدماء لم يجمعوا عليه ، فمن قائل([٥٧]) إن الأفوه الأودي أول من قصّد القصيدة .ومن قائل([٥٨]) إنه ابن حذام .([٥٩])

وينتقد الدكتور حسين عطوان صاحب كتاب " الشعر والشعراء " ابن قتيبة ،ويرى أنه لم يضف شيئا على ابن سلام ، بل إنه اجترّ أقواله في إيجاز مخل ،بحيث لم ينر الدرب لنا ، بل زاده ظلاما في وجوهنا .([٦٠])

وهو يرى أن (كل شئ في هذا الشعر من تقاليد فنية رائقة ، وظواهر لغوية ناضجة ،وقيم موسيقية وصوتية دقيقة، يدل دلالة قوية على أنه ثمرة مرحلة، بل مراحل طويلة موصولة ،مرت عليه حتى تماثلت صورته ، ورسخ نظامه ، ورست تقاليده)([٦١])

وينقل عن الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص١٤(الطبعة الرابعة) للدكتور شوقي ضيف قول جويدي:" إن قصائد القرن السادس الميلادي الجديرة بالإعجاب تنبئ بأنها ثمرة صناعة طويلة "([٦٢])

ثم يخلص إلى قول جامع متفقا مع ما نشر بمجلة المجلة : العدد ٩٨ فبراير ١٩٦٥ م . والدكتور يوسف خليف في مقدمة القصيدة الجاهلية ، من " أن أوليات الشعر العربي ضاعت واندثرت ، ولم يعد لها أي ذكر في كتب القدماء يشرحها ويوضحها ويتتبعها ويرصدها " ([٦٣])

أما جواد علي فيصف رأي الجاحظ وغيره ممن ذهبوا : (بأن أولية الشعر الجاهلي بنحو قرن أو قرنين قبل ظهور الإسلام) بالخطل في الرأي ، والفساد في الحكم ، ويرى أن :" الشعر أقدم من هذا العهد بكثير ، وقد أشار المؤرخ (سوزيموس) إلى وجود الشعر عند العرب ، وهو من رجال القرن الخامس للميلاد إلى تغني العرب بأشعارهم ،

---

٥٦ مجالس ثعلب.ج٢ ص٤١١ .السيوطي المزهر.ج٢ ص٤٧٧

٥٧ السيوطي . المزهر .ج٢ . ص٤٧٧

٥٨ السيوطي . المزهر .ج٢ . ص٤٧٧

٥٩ د/ حسين عطوان .مقدمة القصيدة العربية .ص٦٦ ، ص٦٧

٦٠ الدكتور حسين عطوان. مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ص٦٩

٦١ المصدر نفسه ص٦٦

٦٢ المصدر نفسه ص٦٦

٦٣ المصدر نفسه ص٦٩

وترنيمهم في غزواتهم بها وفي إشارته إلى الشعر عند العرب دلالة على قدم وجوده عندهم ، واشتهاره شهرة بلغت مسامع الأعاجم ، فذكره في تاريخه . في سيرة القديس (نيلوس) المتوفى حوالي سنة ٤٣٠ بعد الميلاد ، أن أعراب طور سيناء كانوا يغنون أغاني وهم يستقون الماء من البئر ،..... والأشعار المروية في كتب التواريخ والأدب عن حفر آبار مكة وغيرها من هذا القبيل ، فقد روي أن (عبد المطلب) لما حفر بئر (زمزم) ، قالت (خالدة بنت هاشم) :

نحن وهبنا لعديّ سجله في تربة ذات غذاة سهلة

تروي الحجيج زعلة فزعلة

وأنّ عبد شمس قال :

حفرت خمّا وحفرت رمّا حتّى أرى المجد لنا قد تمّا"([٦٤])

فهو يرجع أولية الشعر الجاهلي إلى التغني بحفر الآبار ،ويرى أن يسمى هذا الشعر بشعر الآبار ، ولم يقتصر التغني بالشعر على حفر الآبار ، بل عند بنائهم بناء أوحفرهم خندقا ،أو إقامتهم سورا ،أوقيامهم بزرع أو حصاد،وكذلك في الغارات والحروب .

* ويذهب(تيودور نلدكه) في كتابه (من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم) والذي قام بترجمته الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه (دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي) يذهب إلى القول بأنه : "مهما يكن من شئ ، فإنه لا يوجد لدينا بيت شعر وثيق النص يمكن أن يرجع إلى ما قبل سنة٥٠٠ ميلادية ." ([٦٥])

* الدكتور / محمد البلوحي : في كتابه (آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي) وهو بصدد الحديث عن جينالوجيا (جذور) الشعر الجاهلي :

يرى أن بداية ظهور الفن بعامة والشعر بخاصة قضية موغلة في القدم، لا يمكن الجزم فيها بحكم، ولاسيما أن الأدلة المادية قليلة، أو منعدمة في بعض المواطن..([٦٦])

---

٦٤ جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام .مجلد ٩ ص٤١٠ .٤١٢.

٦٥ د/عبدالرحمن بدوي .دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ص١٨ .ط١ ١٩٧٩ م

٦٦ د/ محمد بلوحي . آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي بحث في تجليات القراءات السياقية ، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب . دمشق ٢٠٠٤ م.ص٢٥

ويرى أن سبب اختلاف القدماء من الرواة والمدونين والنقاد في أولية الشعر الجاهلي هو الزخم الذي واكب عملية التدوين في العصر العباسي ، والذي كان يهدف من ورائها دارسو الأدب الجاهلي إلى تدوين أكبر قدر ممكن من الأخباروالأشعار قبل اندثارها بذهاب حامليها من الرواة ، فلم يمحّصوا الصحيح فيه من الموضوع ؛ لأن هدفهم كان الجمع أولا ثم التمحيص ثانيا ...([٦٧])

وقد خلص وهو بصدد إشكالية أولية الشعر الجاهلي في قراءته التاريخية لهذه الإشكالية ، وقد عرض لعدة أطروحات تناولت هذه الإشكالية إلى :"ولئن حاولت القراءة التاريخية أن تفصل في إشكالية أوليّة الشعر الجاهلي ، بتبنيها الأطروحات التي فصّلنا فيها سلفا ، إلا أننا ندرك أن المسألة شائكة لا يمكن الفصل فيها بقول ، وإنما تبقى المسألة خاضعة للتخمينات والفرضيات التي لا تستند إلى السند العلمي القائم ، لأن الإشكالية موغلة في القدم وفرضياتها مبنية على الاحتمال الذي لا يرقى إلى القول الفصل."([٦٨])

**** بينما يذهب الدكتور حسين عطوان تحت عنوان (غموض نشأة الشعر العربي) إلى أن " كل شيء في هذا الشعر من تقاليد فنية راقية وظواهر لغوية ناضجة ، وقيم موسيقية وصوتية دقيقة ، يدل دلالة قوية على أنه ثمرة مرحلة ،بل مراحل طويلة موصولة ، مرّت عليه حتى تماثلت صورته ، ورسخ نظامه ، ورست تقاليده ([٦٩])**

ويرى : " أن تباشير هذا الشعر فيما يبدو طويت في ثنايا الزمن والنسيان ، وألقت السنون المتعاقبة بيننا وبينها ستورا كثيفة ،حجبتها عنا ، وأبعدتها منا. بل نحن لا نبعد إذا قلنا : إن رياح الصحراء العاصفة سفت عليها الرمال كما سفتها على الديار والأطلال فطمرتها، فإذا هي أطلال مدروسة ، ومعالم مطموسة ."([٧٠])

---

٦٧ المصدر السلبق ص ٢٥

٦٨ المصدر السابق ص٤٣

٦٩ د. حسين عطوان . مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلى ص.٩٩ دار المعارف بالقاهرة

٧٠ المصدر السابق .ص ٦٦

بينما يذهب جورجي زيدان في مؤلفه " تاريخ آداب اللغة العربية " وهو بصدد الحديث عن تاريخ آداب اللغة العربية حيث يقول : " وقسمنا آدابها قبل الإسلام إلى عصرين : عصر الجاهلية الأولى وعصر الجاهلية الثانية .... " (٧١)

ثم يتحدث عن فترة الجاهلية الأولى ، وقد حددها ماقبل قرنين من الإسلام ، غير أنه حين تحدث عن هذه الفترة أبعد في التاريخ إلى عصر حمورابي البابلي وهذا رأي الدكتورشوقي ضيف وجعل لغة البابليين عربية .

وحجته فيما ذهب إليه أن لغة العرب الفصحى كما جاءت في القرآن والشعر الجاهلي والأمثال لايمكن أن يكون أصحابها دخلوا المدنية أو العلم من قرن إلى قرنين فقط ، ويستشهد على ذلك بالاكتشافات الأثرية التي أيدت هذا الرأي بما أظهرته من بقايا تمدن اليمن قبل الإسلام ببضعة عشر قرنا ، وخاصة أنه لم يظهر من تلك الأطلال إلا الطفيف ؛لأن ماعثروا عليه من الأحافير لايذكر في جانب ما بقي مدفونا في الرمال .

فضلا عمّا ظهرمن فضل العرب وأعراقهم في المدنية والعلم مما قرأوه من آثار بابل وآشور.

وليس بعيدا على المؤلف أن يذهب هذا المذهب ولاسيما أنه في كتابه (العرب قبل الإسلام) ص٤٩ قد أشار إلى أنه لو صحّ أن دولة حمورابي التي تولّت بابل وسائر العراق في القرن العشرين قبل الميلاد عربية ، كان العرب من أسبق الأمم إلى المدنية .

فشريعة حمورابي والتي عثروا عليها في بلاد السوس منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الأسود الصلب سنّها حمورابي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، أي قبل شريعة موسى بثلاثة أو أربعة قرون ، وهي مؤلفة من٢٨١ مادة تبحث في طبقات الأمة وحقوق المرأة وواجباتها والزواج والتبني والإرث وغيره ..وكذلك ماتمّ اكتشافه من آثار تفيد بنشر التعليم على نحو ماعثر من أنقاض مدرسة لتعليم الأطفال في (زيبارا) منذ أربعة آلاف سنة .

ويتحدث المؤلف عن كثير مما اكتشف من آثار علمية لدولة حمورابي والشاهد الذي يطمح إلى بيانه أنه إذا ثبتت عربية دولة حمورابي ، كان العرب أسبق أمم الأرض إلى

٧١ جورجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية ،الجزء الأول ص٢٣ دار الهلال

سن الشرائع وتنشيط العلم ، وأنهم بلغوا في نظام الاجتماع مالم يبلغ إليه معاصروهم ، وأدركوا من الرقي الاجتماعي مالايزال بعض الأمم المتمدنة في هذا العصر بعيدين عنه.([٧٢])
وكذلك سفر أيوب " ومما يعد من قبيل آداب العرب في ذلك العصر سفر أيوب ، والمرجح عند أهل التحقيق أن صاحب هذا السفر في التوراة عربي الأصل . نظم ذلك الكتاب شعراً عربياً في نحو القرن العشرين قبل الميلاد على أثر نزوح الحمورابيين من بين النهرين ، ثم ترجم إلى العبرانية وعدّ من الأسفار المقدسة ، وضاع أصله العربي كما ضاع أصل كليلة ودمنة الفارسي . فإذا ثبتت عربية سفر أيوب كان العرب أسبق الأمم إلى قرض الشعر ، لأنه نظم قبل إلياذة هوميروس بألف سنة وقبل مهابهارتة الهند بعدة قرون".([٧٣])
يبقى أن نشير أن الكاتب يقر بأن الحكم على ما تقدم من أحوال الجاهلية الأولى مبني على الحدس والتخمين ؛ لاستغراقه في القدم وضياع أخبار تلك الجزيرة بمرور الأيام.([٧٤])
الجاهلية الثانية :(العصر الجاهلي قبيل الإسلام من القرن الخامس للميلاد إلى ظهور الإسلام) ويقصد بآداب العرب في جاهليتهم الثانية هي آدابهم قبيل الإسلام وهم أهل بادية لايقرأون ولا يكتبون وقد جمعت هذه الآداب بعد الإسلام بالأخذ عن الأفواه
وأمام إشكالية أولية الشعر الجاهلي نجد المستشرقين قد تباينت آراؤهم حيالها وفقا لتضارب مواقف الكثير من القدماء ، فبينما يذهب كارل نالينو منتصرا لرأي الجاحظ ومن ذهب مذهبه "من العلماء العرب الذين قالوا بمدة مائة وخمسين سنة تقريبا للشعر الجاهلي، لم يبعدوا عن الصواب، إذا فرضنا أنهم أرادوا بذلك ماوصل إلينا من الأشعار القديمة"([٧٥])

بينما يذهب مارجليوث متحفظا عن الجزم في هذه الإشكالية ، كما يرى الدكتور محمد بلوحي في كتابه "آليات الخطاب النقدي والقول بأنه " ليس من الواضح متى بدأ العرب في نظم الشعر ، فبعضهم ، يرجعه إلى آدم ، والبعض يدعي تقديم قصائد عن إسماعيل ، وعلى الرغم من أن ملوك جنوب الجزيرة العربية ألفوا نقوشهم بلغاتهم ولهجاتهم ، فإن الأشعار التي اهتموا بنظمها ، حسبما يقول الأثريون المسلمون ، إنما كتبت بالعربية

٧٢ جرجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الأول ص٢٦
٧٣ المصدر السابق ص٢٦
٧٤ المصدر السابق ص٢٧
٧٥ كارل . نالينو تاريخ الآداب العربية ص٦٨

التى كتب بها القرآن ، لكن يبدو أن الرأي العام يقرر أن الشعر العربي على الشكل الذى استقر عليه فيما بعد بدأ قبل ظهور الإسلام ببضعة أجيال قليلة".([٧٦])

بل حاول مرجوليوث إثبات أن البداية الحقيقية للشعر العربي إنما ظهرت بعد الإسلام لا قبله " والكمية الهائلة من النقوش التي ترجع إلى ما قبل الإسلام والتي نملكها الآن مكتوبة بعدة لهجات ، ليس فيها شئ من الشعر . ولا يمكن أن نستنتج من النقوش العربية أنه كانت لدى العرب أية فكرة عن النظم أو القافية .."([٧٧])

أما كارل بروكلمان : فإنه يقر وهو بصدد الحديث عن أولية الشعر عند العرب بصعوبة الفصل في هذه المسألة ، فشعر العرب كان حسب تصوره " فنا مستوفيا لأسباب النضج والكمال ، منذ ظهر العرب على صفحة التاريخ ، ولا تستطيع رواية مأثورة أن تقدم لنا خبرا صحيحا عن أولية الشعر ، وإذا فلا يسعنا إلا أن نستخلص من الملابسات المشابهة عند شعوب بدائية أخرى نتائج معينة يمكن تطبيقها أيضا على العرب،إذا قدّمت الأحوال الممكن التعرف عليها عند هؤلاء نقاطا يعتمد عليها في ذلك".([٧٨])

تعليق :

ومن خلال استعراض جملة الآراء السابقة لأولية الشعر الجاهلي ،وتحديد العمر الزمني له نستطيع أن نقول أنه يصعب الجزم أو القول الفصل في هذه الإشكالية ؛ لأن التوفيق بين هذه الآراء جميعا من الصعوبة بمكان ، والأمر يتطلب من الجهد إن توفر منه جانب غابت عنه ومنه جوانب ، وخاصة ما يرتبط بعوامل الزمن فيما يكتشف من الدلائل القاطعة واليقينية من رسوم ونقوش ، وأظنها بعيدة المنال – على الأقل إلى عصرنا الحالي وكذا من عوامل الزمن مايرتبط بطول الفترة مابين ماتفق عليه من تحديد الفترة الزمانية للشعر الجاهلي والتي تمتد إلى قرنين قبل الإسلام ، ومابين عصر التدوين ،وكذا عامل البيئة المكانية ، ومنها الكتابة ومعرفة العرب بها ، والخط الذي كانوا يكتبون به ، وحجم

---

٧٦ ديفيد صمويل مرجوليوث . نشأة الشعر العربي ضمن كتاب : دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي .ترجمة عبد الرحمن بدوي ص٩٣ ٩٤

٧٧ المصدر السابق ص٩٠ ،٩١

٧٨ كارل بروكلمان . تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ٤٤/١

الكتابة ، والمصادرالتي حوت شعر هذه الفترة ،ومدى التحقق منها ، ولاسيما ما انتسب من الأبيات لأكثر من شاعر ، وكيفية بداية الشعر، وأسبابه وأول من قصّد القصيد ،.....، ....

يبدو أن الأمر ليس سهلا أمام أي باحث ، في عصر كل معطياته قصائد مجتمعة أومتفرقة ، أو أبيات شعرية متناثرة بين ثنايا الكتب الأدبية والمعاجم والسير،واللغة والنحو..

كل الدلائل تقر أنها ولدت في عصر متأخر – عصر التدوين – يأبى على العقل قبول مدة حملها – الرواية الشفوية – والتي قاربت من القرون أربعة ، تضافرت كثير من العوامل لحمل العقل على الوقوف طويلا أمام القبول المطلق لكل ما توارث في الدرس الأدبي عبر القرون الطويلة فيما يخص تلك الحقبة من تاريخ العرب ، وهذه العوامل المتفق عليها أو المتباينة والتي تحمل إلى الافتراضات والتخمينات في كل مفردات البحث في الشعر الجاهلي تجعل القارئ بل الباحث – لشعر هذا العصر في حيرة وقلق شديدين ، وعلى الجانب الآخر لايمكن تصور النفي المطلق لكل هذا الموروث من ثقافة أمة تغنت بلغتها ، وحقّ لها أن تتغنى بها ، وكيف لا ؟ !! وقد شرّفها الله بأسمى التشريف ، قرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار إلى يوم القيامة ، . ولا سيما ما أثر من الصحيح في عصر النبوة ، وقد ارتبط بكثير من عناصر مادة البحث فيما يخص الشعرالجاهلي من أسماء شعراء وقرّاء وكتّاب وصحف بعيدا عن الخط واللغة وكيفيتها ، ومن هنا كان لزاما أن تضاعف الجهود من قبل الغيورين على تراث هذه الأمة لإعادة البحث بمنهج ليس بالهين أو اليسير لدراسة هذه الحقبة من جديد ، من خلال كتب التراث التى تضمنت بين جنباتها أخبارها ومايتصل بها في كل الجوانب وفق منهج يضمن تنقية هذا التراث من هذه التباينات والاختلافات في الطرح ؛ لتخرج الدراسة محددة المعالم ، بعيدة عن الهوى الشخصي أوالطائفي أو المذهبي ،أو السياسي أو الديني ...وليكن التمحيص والتحقيق بالغي الدقة ،وليشارك الثقات من أهل العلم في كل مجالات المعرفة ذات الصلة في هذا العمل العظيم ؛لأن كثيراً من مصادر التراث قد ملئت بما لايقبله عقل ، ولايرتضيه ذوق بصير ، ولايقبل في ميزان النقد .

ولك أن تتصور حجم المأساة في الوضع والنحل ، وأنت تقرأ نقد ابن سلام لمحمد بن اسحاق صاحب السيرة ، ويزداد الأمر سوءا عندما يسأل عن الشعر الموضوع الذي

ضمّنه سيرته ، فيعتذر، وليته لم يعتذر" وكان ممن هجّن الشعر وأفسده ، وحمل كل غثاء محمد بن اسحاق مولى آل مخرّمة بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسيرفنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول لا علم لي بالشعر إنما أوتى به فأحمله ولم يكن له عذرا فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن أشعار الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ، ومن أداه منذ ألوف من السنين والله يقول :{ وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى } . وقال في عاد: { فهل ترى لهم من باقية }."([٧٩])

فإذا كانت كتب السير ،- وهي مصدر هام من مصادر الشعر الجاهلي - على هذا النحو فليست المصادر الأخرى بمنأى عن هذه المآخذ ، وليس كل ماأثر عن القائلين ببدايات الشعر الجاهلي وعمره الزمني ببعيدين عن هذه المآخذ ، فمن قائل أنه يمتد إلى آدم عليه السلام ، ومنهم من يرده إلى عاد وثمود ، ومن قائل إلى سيدنا إسماعيل ، ومنهم من يرده إلى ماقبل زمن عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف وهي أبيات لم تصل إلى حد القصيد ، وعلى عهدهما قصّدت القصائد ،ومنهم من قيّده بالمئة سنة قبل البعثة ، وغيرهم بقرن ونصف ،ومنهم من جعله قرنين على أقصى تقدير ،ومنهم من جعله لايصل إلى أربعمائة سنة ، ومنهم في المقابل من ينفي وجوده تماما في العصر الجاهلي ، وإنما هو حديث بظهور الإسلام ، وكل منهم يرى فيما ذهب إليه من رأي أنه الأصوب . أما من أ ول من قصّد القصائد ؟ فمن قائل أنه المهلهل بن ربيعة ،ومن قائل أنه امرؤ القيس ، وغيرهما يرى أنه الأفوه الأودي ، وغيرهم يرى أنه ابن حذام ...

وكذا افتراضات وتأويلات لم اخترع العرب الشعر؟ أوكيف بدأ الشعر عند العرب ؟ وكيف وصل إلى مرحلة النضج التي استقرّ عليها بهذه الصورة ؟ .....

وأمام كل ما سبق من أطروحات تتعلق بأولية الشعر الجاهلي وعمره الزمني ، في ظل كثرة مصادره وتداولها على مستوى الدرس الأدبي واللغوى ، يبقى الدارس مشدوها بين ما حوته المصادر الأدبية والمتعلقة بكثرة الشعر الجاهلي من دواوين وقصائد بهذه الإجادة ، وبين فترة تدوينه رغم ندرة ما أثر من كتابة لهذا الشعر في عصره ،الأمر الذي يوجب إعادة النظر في الموروث من الشعر الجاهلي ، وتحري الدّقّة في كل متعلقاته من

٧٩ محمد بن سلام / ج١ ص٤ . نشرة محمود شاكر ، القاهرة سنة ١٩٧٤ م

تحديد فترته ، وبداياته ، ولتكن الدراسة فيما هوثابت منه ، والبعد عن التخمينات التي أضحت بجانب شغل مساحات كبيرة من الأبحاث والمؤلفات التي تتناول دراسة هذه الفترة ، أضحت منبرا لخطباء يتصارعون بين مؤيد ومعارض ، بل ذهب كل فريق إلى تقوية حجته بجمع شتات لايرقى إلى التوثيق من خلال أخباروردت في مؤلفات عدّت مصادر للشعر الجاهلي ، ككتب الأدب والسير والتاريخ واللغة والنحو وغيرها مما لا يصح الاعتماد عليه في مثل هذه الأخبار كما سنبين بعد ذلك فى مبحث مصادر الشعر الجاهلي – فأوليات الشعر الجاهلي والمختلف عليها ، وكذلك فترة الشعر الجاهلي الزمانية والمختلف عليها أيضا إذا كان من موجبات البحث التعرض لها ، أظن أن تناولهما وغيرهما ككتابة الشعر في الجاهلية للحد الذي يصل ببعض الباحثين إلي إثباته بالقطع واليقين أمريدفع وبشدة إلى إعادة النظر في دراسة الموروث بطريقة أكثر دقة لتوثيق ما هو ثابت باتفاق العلماء وإزاحة كل ماهو قائم على التخمين والفرض .